عشرة قواعد في الاستقامة

تأليف

عبد الرازق بن عبد المحسن البدر

مؤسسة الجليمي للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى لمؤسسة الجليمي

١٤٣٧هـ- ٢٠١٥م

رقم الإيداع:	٢٠١٥/٢٦٥٨٨
الترقيم الدولي:	I.S.B.N: ٩٧٨-٩٧٧-٦٥٣٠-١٠-٢

مؤسسة الجليمي للنشر والتوزيـــع

٨١ شارع البستان (عبد السلام عارف سابقًا)

تقاطع شارع الجمهورية- عابدين- القاهرة

هاتف: ٢٣٩٣٥١٩٠ - ٠١٠٠٦٧٥٦٧٣٩- ٠١١١٩٩٠٣٨٣٥

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة

إنَّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذُ بالله من شُرور أنفسنا وسيِّئات أعمالِنا، من يهده الله فهو المهتدي، ومَن يضلل فلا هادي له، وأشهدُ أن لا إله إلَّا الله وحده لا شَريك له، وأشهد أنَّ محمَّدًا عبده ورسوله صلَّى الله وسلَّم عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

أمَّا بعـدُ: إنَّ موضُوعَ هذه الرِّسالة عن الاستقامة، وهو موضوع عظيمُ الأهمِّية جليلُ القَدر، وحَقيقٌ بكلِّ واحدٍ منَّا أن يُعنى به، وأن يُعطيَه من اهتمامِه وعنايتِه؛ قال الله سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ **[سورة الأحقاف].**

وقال الله جلَّ وعلا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ

وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾ [فصلت: ٣٠- ٣٢].

فالاستِقامة يترتَّب عليها سعادةُ الدُّنيا والآخرةِ، وفلاحُ العبدِ وصلاحُ أمرِه كلِّه؛ فحقيقٌ بالنَّاصح لنفسِه الرَّاغب في سعادتِها أن يُعْنَى بالاستقامة عظيمَ العنايةِ علمًا وعملًا، وثباتًا على ذلك إلى الممات، مستمدًّا العونَ من الله تبارك وتعالى.

وكثيرًا ما تَردُ الأسئلة من النَّاس على أهل العلم وطلَّابه والدُّعاة إلى الله ﷻ والمُصلِحين عن الاستقامةِ، وعن حقيقتِها، وعن الأمور المُعينة على الثَّبات على صراط الله المُستقيم إلى غير ذلك منَ السُّؤالات الَّتي تَرد في هذا الباب.

وقد رأيتُ أنَّه من المفيدِ لنفسِي ولإخواني جمعَ بعضِ القواعدِ المهمَّةِ الجامعةِ في هذا الباب؛ لتكون لنا ضياءً ونبراسًا بعد مطالعَةٍ لكلام أهل العلم وأقاويلِهم رحمهم الله تعالى عن الاستقامةِ، وعمَّا يتعلَّق بها، وسأذكر في هذه الرِّسالة عشر قواعد عظيمةٍ في باب الاستقامة، وهي قواعد مهمَّةٌ جديرٌ بكلِّ واحدٍ منَّا أن يتنبَّه لها.

ومن الله وحده أستمدُّ العونَ وأستمنِحُ التَّوفيقَ.

القاعدة الأولى:

الاستقامة مِنَّةٌ إلهية وهِبة ربَّانيةٌ

ففي آياتٍ من كتاب الله – سبحانه وتعالى – يضيف الله ﷻ إلى نفسه الهدايةَ إلى صراطِه المستقِيم، وأنَّ الأمرَ كلَّه بيدِه ﷻ يهدي مَن يشاءُ، ويُضلُّ مَن يشاءُ، وبيده- سبحانه وتعالى- قلوبَ العباد، فمَن شاءَ أقامَه- تبارك وتعالى- على الصِّراط، ومن شاء أزاغَه.

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾﴾ [سورة النساء].

فالهداية إلى الصِّراط بيد الله ﷻ، وقال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾﴾ [سورة النساء]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [سورة يونس]، وقال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾﴾ [سورة الأنعام]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ

يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٤٦﴾ ﴾ [سورة النور]، وقال تعالى ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [سورة التكوير].

والآيات في هذه المعنى كثيرةٌ، فالهدايةُ بيد الله ﷻ يمُنُّ بها- سبحانه وتعالى- على مَن يشاء من عِباده.

ولهذا كانَ من أوَّلِ قواعِد الاستقامةِ وأُسُسِها التَّوجُّهُ الصَّادقُ إلى الله ﷻ في طلبِها؛ لأنَّها بيدِه، وهو- سبحانه وتعالى- الهادي إلى صراطه المستقيم، وقد كانَ أكثرُ دعاءِ النَّبيِّ ﷺ: «يَا مُقَلِّبَ القُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ»، وهذا هو الثَّبات على الاستقامَةِ.

قال أمُّ سَلَمة: قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله! أَوَ إِنَّ القُلُوبَ لَتَتَقَلَّبُ؟ قَالَ: «نَعَمْ؛ مِا مِنْ خَلْقِ اللهِ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ بَشَرٍ إِلَّا أَنَّ قَلْبَهُ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابعِ الله، فَإِنْ شَاءَ اللهُ ﷻ أَقَامَهُ، وَإِنْ شَاءَ أَزَغَهُ»(١).

فالاستقامةُ بيَد الله، فمَنْ أرادَها لنفسِه؛ فليطْلُبها منَ الله

---

(١) أخرجه أحمد (٢٦٥٧٦)، والتِّرمذي (٣٥٢٢) وحسَّنه، وانظر: «الصَّحيحة» للألباني (٢٠٩١).

وليُلِحَّ في السُّؤال، وقد جاء في «صحيح مسلم»[١] من حديث عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا أنَّها سُئِلت: بأيِّ شيءٍ كانَ النَّبيُّ ﷺ يفتَتِحُ صلاتَه من اللَّيل؟ قالت: إذا قامَ من اللَّيل افتتَح صلاتَه: «اللهُمَّ رَبَّ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتَلَفْتُ فِيهِ مِنَ الحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ».

فهذا كان- عليه الصَّلاة والسَّلام- يقولُه كلَّ ليلةٍ في افتتاحِه لصلاةِ اللَّيل: «إنَّك تَهدِي مَنْ تَشَاءُ إِلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ».

ولمَّا كان هذا المطلَبُ- أي سؤالَ الله تعالى الهدايةَ- أعظمَ المطالبِ وأجلَّها؛ أوجبَ الله- سبحانه وتعالى- على عباده أن يسألوه الهدايةَ إلى صراطِه المستقيم مرَّات متكرِّرةٍ في اليوم واللَّيلة، وذلك في سورة الفاتحة: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧ ﴾، قال بعضُ أهل العلم: ينبَغي أن يُنبَّه العوامُّ إلى

(١) برقم (٧٧٠).

أنَّ هذا دعاءٌ؛ فعندما تقول: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ أنتَ تدعو اللهَ بهذه الدَّعوة الَّتي أوجبَها الله عليكَ سبعة عشر مرَّة في اليوم واللَّيلة بعدد ركعاتِ الصَّلاة المكتوبة.

ولهذا ينبَغي على المسلم أنْ يستَشعِر أنَّ هذا دعاءٌ، وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «تأمَّلتُ أنفعَ الدعاء، فإذا هو سؤال العَون على مرضاتِه، ثمَّ رأيتُه في الفاتحة في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾»(١)، وقال: «أُمِرَ العبدُ بدوام دعاء الله سبحانه بالهداية إلى الاستقامة»(٢).

فأنت مطلوبٌ منكَ أن تُداومَ على هذا الدُّعاء؛ دعاء الله الهدايةَ للاستقامة، وهو موجودٌ في سورة الفاتحة.

وكان الحسَن البَصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ إذا قَرأ قولَ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ ﴾ قال: «اللَّهُمَّ أنتَ ربَّنا فارزُقْنا الاستقامَة»(٣).

---

(١) «مدارج السَّالكين» لابن القيِّم (١/ ٧٨).

(٢) «اقتضاء الصِّراط المستقيم» (١/ ٨٣).

(٣) رواه الطَّبري في «تفسيره» (٢١/ ٤٦٥).

القاعدة الثَّانية:

حقيقةُ الاستقامَة

لزُوم المنهجِ القويمِ والصِّراطِ المستقيمِ

ونسترشد في معرفة حقيقة الاستقامة بالوقوف على نقول مباركة عن الصَّحابة والتَّابعين لهم بإحسان في بيان معناها وتوضيح حقيقتِها: قال صدِّيقُ الأمَّة أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾: «هُم الَّذين لم يُشركوا بالله شيئًا»(١).

ورُوي عن عمر بن الخطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّه قرأ هَذه الآيةَ على المنبر: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾ فقال: «لم يَرُوغوا رَوَغان الثَّعلب»(٢). وعن ابنِ عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في معنى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾: «على شهادة أن لا إله إلَّا الله»؛ ورُوي نحوه عن أنس ومجاهد والأسود بن هلال وزيد بن أسلم والسُّدِّي وعِكرمة وغيرِهم(٣).

ورُوي عن ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّه قال: «استقامُوا على أداءِ

---

(١) رواه الطَّبري في «تفسيره» (٢١/ ٤٦٤) ط. مؤسسة الرسالة.

(٢) رواه الطَّبري في «تفسيره» (٢١/ ٤٦٥).

(٣) انظر: «تفسير الطَّبري» (٢١/ ٤٦٤ – ٤٦٥) ط. مؤسسة الرسالة.

فرائضِه»(١). وعن أبي العَالية قال: «ثمَّ أخلَصُوا له الدِّين والعَمل»(٢).

وعن قَتادة في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ﴾ قال: «استقاموا على طاعة الله»(٣).

ذكر هذه الأقوال ابنُ رجَب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «جامع العلوم والحِكم»(٤)، ثمَّ عرَّف الاستقامةَ بقوله: «والاستقامَة: هيَ سلوكُ الصِّراط المستقيم، وهو الدِّينُ القيِّم منْ غَير تَعريج عنه يَمنةً ولا يَسرةً، ويشمَل ذلك فعلَ الطَّاعات كلِّها، الظَّاهرة والباطنة، وتركَ المنهيات كلِّها كذلك، فصارت هذه الوصيَّةُ جامعةً لخِصال الدِّينِ كُلِّها»(٥) انتهى كلامه.

وهذه المعاني كلُّها متقاربَةٌ ويفسِّرُ بعضُها بعضًا؛ لأنَّ الاستقامةَ من الكلماتِ الجامعةِ الَّتي تَشمل الدِّينَ كلَّه.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فالاستقامةُ كلمة جامعةٌ آخذةٌ بمَجامِع الدِّينِ؛ وهي القيامُ بينَ يدي الله على حقيقةِ الصِّدقِ والوَفاء بالعهدِ»(٦).

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢١/ ٤٦٥).
(٢) أورده الماوردي في «النكت والعيون» (٥/ ٢٧٥)
(٣) أخرجه عبد الرَّزَّاق في «المصنَّف» (٢٦١٨).
(٤) (ص: ٣٨٣ – ٣٨٤).
(٥) (ص: ٣٨٥).
(٦) في «مدارج السَّالكين» (٢/ ١٠٥).

القاعدة الثَّالثة:

أصلُ الاستقامةِ استقامةُ القلبِ

روى الإمام أحمد(١) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «لَا يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ».

فأصلُ الاستقامةِ استقامةُ القَلب، فالقلبُ إذا صَلَحَ واستقامَ تبعَه البدنُ. قال الحافظ ابن رجَب رَحِمَهُ اللهُ: «فأصلُ الاستقامةِ استقامةُ القلب على التَّوحيد.

كما فسَّر أبو بكر الصِّدِّيق وغيرُه قولَه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ بأنَّهم لم يلتفتوا إلى غيره.

فمتَى استقامَ القلبُ على معرفةِ الله، وعلى خشيتِه، وإجلاله، ومهابتِه، ومحبَّتِه، وإرادته، ورجائه، ودعائه، والتوكُّلِ عليه، والإعراض عمَّا سواه؛ استقامَت الجوارحُ كلُّها على طاعتِه، فإنَّ القلبَ هو ملِكُ الأعضاء، وهي جنودُهُ؛ فإذا استقامَ الملِك؛ استقامَت جنودُه ورعاياه»(٢).

وفي «الصَّحيحين»(٣) عن النُّعمان بن بَشير رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال:

---

(١) في «المسند» (١٣٠٤٨)، وحسَّنه الألباني في «الصَّحيحة» (٢٨٤١).
(٢) «جامع العلوم والحكم» (ص: ٣٨٦).
(٣) البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).

سمعتُ النَّبيَّ ﷺ يقولُ: «أَلَا إِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ، صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ القَلْبُ».

ويقول ابنُ القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ في مقدِّمة كتابه «إغاثة اللَّهفان من مصائد الشَّيطان»(١): «ولما كان القلبُ لهذه الأعضاء كالملِكِ المتصرِّف في الجنُود الَّذي تصدُرُ كلُّها عن أمرِه، ويستعمِلُها فيما شاءَ، فكلُّها تحتَ عبوديتِه وقهرِه، وتكتسِبُ منه الاستقامَةَ والزَّيغ، وتَتْبَعه فيما يعقِدُه من العَزم أو يحلُّه.

قال النَّبيُّ ﷺ: «أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ، صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ القَلْبُ».

هو مَلِكُها وهيَ المنفِّذَة لمَا يأمرُها به، القابلةُ لِمَا يأتِيها منْ هَديَّتِه، ولا يستقيمُ لها شيءٌ مِنْ أعمالها حتَّى تَصدُرَ عن قَصدِه ونيتِه، وهو المسؤُول عنها كلِّها».

ولهذا قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [سورة غافر]، وكانَ من دعاء نبيِّنا ﷺ: «اللَّهُمَّ إنِّي أَسْأَلُكَ قَلْبًا سَلِيمًا»(٢).

---

(١) (١/ ٥).

(٢) أخرجه أحمد (١٧١١٤)، والنَّسائي (١٣٠٤)، وانظر: «الصَّحيحة» (٢٣٢٨).

القاعدة الرَّابعة:

الاستقامةُ المطلُوبَة منَ العبدِ هي السَّدَاد فإنْ لم يقدر عليه فالمقارَبة

وقد جمعَ النَّبيُّ ﷺ هذيْن الأمرينِ في قوله: «إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَأَبْشِرُوا»(١).

فالمطلوب في باب الاستقامةِ السَّداد؛ والسَّدادُ: أن تصيبَ السُّنَّة.

قال النَّبيُّ ﷺ لعليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما طلبَ منه أنْ يعلِّمَه دعاءً يدعُو اللهَ به، قال: «قُلْ: اللَّهُمَّ اهْدِنِي وَسَدِّدْنِي»، قال: «وَاذْكُرْ بِالهُدَى هِدَايَتَكَ الطَّرِيقَ، وَالسَّدَادِ سَدَادَ السَّهْمِ»(٢).

فَالعبدُ مطلوبٌ منه أنْ يُجاهِدَ نفسَه على أنْ يُصيبَ السَّدادَ، أنْ يُصيبَ هَديَ النَّبيِّ ﷺ ونهجَه وسُلوكَه، ويُجاهدَ نفسَه على ذلكَ، فإنْ لم يتمَكَّن؛ فَعليه بالمقارَبة، فقد قال الله تعالى: ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ [فصلت: ٦].

ذِكْرُ الاستغفارِ بعدَ الأمر بالاستقامَةِ فيه إشارةٌ إلى أنَّ العبدَ

---

(١) أخرجه البخاري (٣٩، و٦٤٦٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٢٥).

لابدَّ لهُ مِن تقصيرٍ مهمَا جاهدَ نفسَه على الاستقامةِ؛ ولهذا قال الحافظُ ابنُ رجَب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وفي قوله عَزَّوَجَلَّ ﴿فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾ إشارةٌ إلى أنَّه لابُدَّ من تقصيرٍ في الاستقامةِ المأمورِ بها، فيُجبَرُ ذلكَ بالاستغفارِ المقتَضِي للتَّوبة، والرُّجوع إلى الاستقامَةِ، فهو كقول النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لمعاذ: «اتَّقِ اللهَ حَيْثُ مَا كُنْتَ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا».

وقد أخبر النَّبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أنَّ الناس لن يُطيقوا الاستقامةَ حقَّ الاستقامةِ، كما خرَّجه الإمام أحمد، وابن ماجه من حديثِ ثوبانَ عن النَّبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «استَقيمُوا ولن تُحْصُوا، واعْلَمُوا أنَّ خيرَ أعمالِكُم الصَّلاةُ، ولا يُحافِظُ على الوضُوء إلَّا مُؤْمنٌ»(١)، وفي رواية للإمام أحمد: «سَدِّدُوا وَقَارِبُوا ولا يُحافِظُ على الوضُوء إلَّا مُؤْمنٌ»(٢)، وفي «الصَّحيحين» عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنَّ النَّبيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «سَدِّدُوا وَقَارِبُوا»(٣).

---

(١) «مسند الإمام أحمد» (٢٢٣٧٨)، و«سنن ابن ماجه» (٢٧٧)؛ وصحَّحه الألباني في «إرواء الغليل» (٤١٢).
(٢) «مسند الإمام أحمد» (٢٢٤٣٢).
(٣) رواه البخاري (٦٤٦٣)، ومسلم (٢٨١٦: ٧٦).

فالسَّداد هو حقيقةُ الاستقامةِ، وهو الإصابةُ في جميعِ الأقوالِ والأعمالِ والمقاصدِ، كالَّذي يَرمي إلى غرضٍ فيصيبُه، وقد أمر النَّبيُّ ﷺ عليًّا أن يسألَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ السَّدادَ والهُدَى، وقال له: «اذكُرْ بالسَّدَادِ تَسْدِيدَكَ السَّهْمَ، وبالهُدَى هِدَايَتَكَ الطَّرِيقَ»(١)، والمقارَبة أن يُصيب ما يقرُب منَ الغَرض إنْ لم يُصِب الغَرَض نفسَه.

ولكنْ بشَرط أن يكونَ مصمِّمًا على قَصدِ السَّداد، وإصابةِ الغَرَض، فتكونُ مقارَبتُه عن غير عَمْدٍ، ويدلُّ عليه قولُ النَّبيِّ ﷺ في حديث الحَكَم بن حزن الكُلفي: «يا أيُّها النَّاس! إنَّكُمْ لَنْ تَعْمَلُوا- أَوْ لَنْ تُطِيقُوا- كُلَّ مَا أَمَرْتُكُم، وَلَكِنْ سَدِّدُوا وأَبْشِروا»(٢)، والمعنى: اقصدوا التَّسديد والإصابة والاستقامة، فإنَّهم لو سدَّدوا في العمل كلِّه، لكانوا قد فعلوا ما أُمِرُوا به كلِّه»(٣).

***

(١) رواه مسلم، وقد تقدم.
(٢) رواه أبو داود (١٠٩٦)، والإمام أحمد (١٧٨٥٦) وحسَّنه الألباني في «إرواء الغليل» (٦١٦).
(٣) «جامع العلوم والحكم» (١/ ٥١٠ – ٥١١).

القاعدة الخامسة:

الاستقامة تتعلَّق بالأقوَال والأفعَال والنِّيَات

فالاستقامة المطلوبة من العبد استقامةٌ في الأقوال وفي الأفعال وفي النِّيَات؛ بمعنى أنَّ أقوال العبد وجوارحه وقلبه ينبغي أن تكون كلّها ماضية على الاستقامة.

قال ابنُ القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «مدارجُ السَّالكين»(١):

«والاستقَامةُ تتعلَّق بالأقوالِ والأفعالِ والأحوالِ والنِّياتِ».

وفي «المسند» للإمام أحمد من حديث أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن النَّبيِّ ﷺ قال: «لَا يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ، وَلَا يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ»(٢).

قال ابنُ رجَب: «وأعظمُ ما يُراعى استقامتُه بعدَ القلبِ مِنَ الجوارح اللِّسانُ، فإنَّه تُرجمانُ القلب والمعبِّرُ عنه»(٣).

ويُلاحَظ هنا خطورةَ القلبِ واللِّسان على العبدِ في باب الاستقامة أو الجُنوح عنْها.

---

(١) (٢/ ١٠٥).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) «جامع العلوم والحكم» (ص: ٣٨٦).

وفي هذا المعنى قال بعضُ أهل العلم: «المرءُ بأصْغَرَيْه: قلبِه ولسانِه».

فالقلبُ واللِّسانُ كلاهما مُضغَةٌ صغيرةٌ جدًّا إلَّا أنَّ جَوارح العبد كلَّها تبعٌ لهما، إذا استقامَ القلبُ واستقامَ اللِّسانُ استقامَت الجوارح.

دليلُ الأوَّل – أي القلب– حديثُ النُّعمان بن بَشِير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ السابق: «أَلا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ، صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ القَلْبُ».

ودليل الثَّاني– أي اللِّسان– ما رواه التِّرمذي(١) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إِذَا أَصْبَحَ ابْنُ آدَمَ، فَإِنَّ الأَعْضَاءَ كُلَّهَا تُكَفِّرُ اللِّسانَ، فتَقُولُ: اتَّقِ اللهَ فِينَا؛ فَإِنَّما نَحنُ بِكَ؛ فَإِنِ اسْتَقَمْتَ اسْتَقَمْنَا، وإِنِ اعْوَجَجْتَ اعْوَجَجْنَا».

فَإِذَا استقامَ القَلبُ استقامَت الجَوارح، وإذا استقامَ اللِّسانُ استقامَت الجوارحُ؛ واللِّسانُ تُرجُمَان القلب وخليفتُه في ظاهر البَدن.

(١) برقم: (٢٤٠٧)، وحسَّنه الألباني في «صحيح التَّرغيب» (٢٨٧١).

فإذا أَسنَدَ القلبُ إلى اللِّسان الأمرَ نفَّذ، فاللِّسانُ تابعٌ للقلبِ، والجوارح تابعة لهما.

ولهذا كان واجبًا على كلِّ مسلمٍ أن يُعنى بصلاح قَلبه، وأن يسألَ ربَّه- تبارك وتعالى- أن يُصلِح قلبَه، وأن يُذهِبَ عنه أمراضَ القُلوب وأسقامَها وأدواءَها وسخائمَها، ثمَّ يعمل على إصلاح لسانه بالأقوال الزَّكيات وجوارحه بالأعمال الصَّالحات.



القاعدة السَّادسة:

لا تكونُ الاستقامةُ إلَّا لله وبالله وعلى أمْرِ الله

١ - لله: أي خالِصة، بمعنى أن يَستقيمَ العبدُ وأن يَلزَمَ صراطَ الله المستقيم، مخلِصًا بذلك الأمرَ لله عَزَّوَجَلَّ، طالبًا به ثوابه ورضَاه، قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٦].

٢- وبالله: أي مُستعينًا على تحقيقِها والقيام بها والثَّباتِ عليها بالله- تبارك وتعالى- ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِ﴾ [هود:١٢٣]، ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥]، وفي الحديث الصَّحيح: «احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بالله»(١).

٣- وعلى أمرِ الله: أي يَسير في استقامَتِه على النَّهج القَويم، والصِّراط المستَقيم الَّذي أمَرَ الله- سبحانه وتعالى- عبادَه به، كما قال تعالى: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ﴾ [هود: ١١٢]، وقد سبَق ذكرُ الآثار عن السَّلف- رحمهم الله تعالى- في تَقرير هذا المعنَى، كقول ابن عبَّاس في قوله: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾ أي استَقاموا في أداءِ الفَرائض، قال الحَسن: «استقاموا على أمْر الله، فعَملُوا بطاعتِه، واجتَنبوا معصيتَه»، وأمْرُ الله عَزَّوَجَلَّ هو شرعُه الَّذي بَعث به نبيَّه صلواتُ الله وسلامُه عليه.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٦٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

القاعدة السَّابعة:

على العبدِ مهما استقام ألَّا يتَّكِل على عمَلِه

الواجب على العبدِ ألَّا يتَّكِل على عمَلِه مهما صلح واستقام، ولا يغترَّ بعبادته، ولا بكثرة ذكره لله، ولا بغيرِ ذلك مِنَ الطَّاعات.

وفي هذا المعنى يقولُ ابنُ القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «والمطلوبُ منَ العبد الاستقامةُ وهيَ السَّداد، فإنْ لمْ يَقدِر عليهَا فالمُقارَبَة، فإنْ نَزل عنهَا فالتَّفريطُ والإضَاعةُ، كما في «الصَّحيحين»(١) من حديثِ عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عنِ النَّبيِّ ﷺ قال: «سَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا، فَإِنَّهُ لَنْ يُدْخِلَ الجَنَّةَ أَحَدًا عَمَلُهُ، قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ الله!؟ قَالَ: وَلَا أَنَا؛ إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ الله مِنْهُ بِمَغْفِرَةٍ ورَحْمَةٍ».

فجَمع في هذا الحديثِ مقاماتِ الدِّين كلِّها؛ فأمَر بالاستقامةِ: وهيَ السَّداد والإصابَةُ في النِّياتِ والأقوالِ والأعمالِ، وأخبَرَ في حديثِ ثَوْبان- أي «استَقِيمُوا ولنْ تُحْصُوا،

---

(١) البخاري (٦٤٦٧)، ومسلم (٢٨١٨).

واعْلَمُوا أنَّ خَيْرَ أعْمَالِكُم الصَّلاة»- أنَّهم لا يُطِيقونَها، فنقَلَهم إلى المُقارَبة وهيَ أنْ يقرُبُوا منَ الاستقامَة بحَسب طاقَتِهم، كالَّذي يَرمي إلى الغَرضِ، فإنْ لم يُصِبْه يُقارِبه؛ ومع هَذا فأخبَرهُم: «أنَّ الاستقَامَة والمقارَبة لا تُنْجي يومَ القِيامةِ، فلا يَرْكَن أحدٌ إلى عمَلِه، ولا يَعْجَب به، ولا يَرى أنَّ نَجاتَه به؛ بَل إنَّما نجاتُه برحمةِ الله وعفوِه وفضلِه»[١].

❊ ❊ ❊

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ١٠٥).

القاعدة الثَّامنة

ثمرة الاستقامة في الدُّنيا
الاستقامة على الصِّراط يوم القيامة

مَنْ هُدِي في الدُّنيا إلى صراط الله المستقيم هُدِي في الدَّار الآخِرة إلى الصِّراطِ المستقيم المنصوبِ على مَتن جهنَّم.

فيوم القيامةِ يُنصب صراطٌ على مَتن جهنَّم أحَدُّ منَ السَّيف وأدقُّ منَ الشَّعرةِ، ويُؤمَر النَّاس بالمرور عليه، ويتفاوَتون في مرورهم عليه تفاوتَهم في الأعمالِ والاستقامةِ على صِراط الله المستقيم في هذهِ الحياةِ الدُّنيا.

قال ابنُ القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فمَنْ هُدِي في هذه الدَّار إلى صراطِ الله المستقيمِ الَّذي أرسَل به رسُلَه، وأنْزَل به كُتبَه؛ هُدِيَ هُناك إلى الصِّراط المستقيم الموصِل إلى جنَّتِه، ودار ثَوابِه، وعلى قَدر ثُبوتِ قَدمِ العبدِ على هذا الصِّراط الَّذي نَصبَه الله لعبادِه في هذه الدَّار يكونُ ثُبوت قدمِه على الصِّراط المنصُوب على مَتنِ جهنَّم، وعلى قَدر سَيْره على هذه الصِّراط يكونُ سَيْرُه على ذاك الصِّراط؛ فمِنهُم من يَمُرُّ كالبَرق، ومِنهُم من يَمرُّ كالطَّرف، ومِنهُم من يَمرُّ كالرِّيح، ومِنهُم مَن يَمرُّ كشَدِّ الرِّكابِ، ومِنهُم مَن

يَسعى سعيًا، ومِنهُم مَن يَمشي مشيًا، ومِنهُم مَن يحبُو حَبْوًا، ومِنهُم المخدوشُ المُسَلَّم، ومِنهُم المكَرْدَس في النَّار، فليَنْظر العبدُ سَيرَه على ذلكَ الصِّراط مِن سَيْره على هذا حَذْو القَذَّة بالقَذَّة جزاءً وِفاقًا، ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٩٠].

ولْيَنظر الشُّبُهات والشَّهواتِ الَّتي تعوقُه عنْ سَيره على هذا الصِّراط المستقيم، فإنَّها الكَلاليب الَّتي بجَنْبَتَي ذاك الصِّراط تَخطَفُه، وتَعُوقه عنِ المرور عليه، فإنْ كَثُرت هُنا وقَويت فكذلكَ هيَ هناكَ ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [سورة فصلت]»(١).

مَن كانَ في هذه الحياة الدُّنيا تَخطَفُه الشُّبهات والشَّهواتُ عن الصِّراط المستقيم، فستخطفه الكلاليبُ الَّتي على جَنبَتي الصِّراط يوم القيامة مثلَ ما خطفَته الشُّبهات والشَّهوات في الدُّنيا، وله كلامٌ آخر قريب من هذا في كتابِه «الجواب الكافي»(٢).

---

(١) «مدارج السَّالكين» (١/ ١٠).

(٢) في (ص: ١٢٣).

القاعدة التاسعة

الموانع من الاستقامة شبهات الضَّلال أو شهوات الغيّ

فالشُّبهات والشَّهوات قواطعُ وموانعُ صادَّةٌ عن الاستقامَة؛ والسَّائرُ على صراطِ الله المستقيم يَمرُّ في سَيْره باستمرار بشبهاتٍ وشهوات تَصرِفه وتَحرِفه عن صراطِ الله المستقيم.

فكُلُّ مَن يَنحرفُ عن الاستقامةِ؛ إمَّا أن يَنحرف عنها بشهوة أو بشبهة؛ والشَّهوةُ فساد في العمل، والشُّبهة فساد في العلم.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام:١٥٣].

جاء في حديث عبدِ الله بن مَسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في «مسند الإمام أحمد»(١) قال:

«خَطَّ لَنَا رَسُولُ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَطًّا، ثُمَّ قَالَ: هَذَا سَبِيلُ الله، ثُمَّ خَطَّ خُطُوطًا عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ، ثُمَّ قَالَ: هَذِهِ سُبُلٌ عَلَى كُلِّ سَبِيل مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦ﴾».

---

(١) برقم (٤١٤٢).

والشَّيطان الَّذي يدعُو إلى الانحِراف عن صراط الله المستقيم؛ دعوتُه إلى الانحِراف عن صِراط الله المستقيم إمَّا بشُبهة أو بشَهوة.

فإذا رأى فيه التفريط حبب إليه الشَّهوات، وإذا رأى عليه الحرص والمحافظة أدخل عليه الشُّبهات.

كما قال بعض السَّلف: «ما أمَر اللهُ تعالى بأمر إلَّا وللشَّيطان فيه نزغتان: إمَّا إلى تَفريط وتَقصير، وإمَّا إلى مجاوزة وغُلُوٍّ، ولا يبالي بأيِّهما ظفر».

قال ابن القيِّم: «وقد اقتطع أكثر النَّاس إلَّا أقلُّ القليل في هذين الواديَيْن: وادي التَّقصير ووادي المجاوزة والتَّعدي، والقليلُ منهم جدًّا الثَّابت على الصِّراط الَّذي كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه»(١).

وهنا ينبغي أن نَستَحضر مثلًا بديعًا عظيمًا، وهو في غاية النَّفع، ثبت في «المسند» و«التِّرمذي» وغيرهما من حديث النَّوَّاس بن سَمْعَان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله ﷺ قال: «ضَرَبَ اللهُ

(١) «إغاثة اللَّهفان» (١/ ١٣٦).

مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا، وَعَلَى جَنْبَتَيْ الصِّرَاطِ سُورَانِ، فِيهِمَا أَبْوَابٌ مُفَتَّحَةٌ، وَعَلَى الأَبْوَابِ سُتُورٌ مُرْخَاةٌ، وَعَلَى بَابِ الصِّرَاطِ دَاعٍ يَقُولُ: أَيُّهَا النَّاسُ! ادْخُلُوا الصِّرَاطَ جَمِيعًا وَلَا تَعْوَجُّوا، وَدَاعٍ يَدْعُو مِنْ فَوْقِ الصِّرَاطِ، فَإِذَا أَرَادَ يَفْتَحُ شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الأَبْوَابِ، قَالَ: وَيْحَكَ لَا تَفْتَحْهُ، فَإِنَّكَ إِنْ تَفْتَحْهُ تَلِجْهُ، وَالصِّرَاطُ: الإِسْلَامُ، وَالسُّورَانِ: حُدُودُ اللهِ، وَالأَبْوَابُ المُفَتَّحَةُ: مَحَارِمُ اللهِ، وَذَلِكَ الدَّاعِي عَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ: كِتَابُ اللهِ، وَالدَّاعِي مِنْ فَوْقِ الصِّرَاطِ: وَاعِظُ اللهِ فِي قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ»(١).

فتصوَّر المثَل ينفعُك الله به؛ ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا، وَعَلَى جَنْبَتَيْ الصِّرَاطِ سُورَانِ (جِداران)، تمشي في طريق مُستقيم على يمينِك جدارٌ، وعلى يسارِك جدارٌ، وفي الجدارين أبوابٌ كثيرةٌ، تمرُّ بها على يمينِك وعلى يسارِك، وهذه الأبوابُ عليها ستُور مُرخاةٌ، وأنتَ تعلم أنَّ الباب الَّذي عليه سِتارةٌ ليس كالباب الَّذي عليه كوالين ومفاتيح، فالبابُ الَّذي عليه سِتارة تدخله بلا كُلفة، لا يعوقُك عن الدُّخول شيءٌ؛ والمسلم

(١) أخرجه أحمد (١٧٦٣٤)، والتِّرمذي (٢٨٥٩)، والحاكم (١/ ١٤٤) وصحَّحه ووافقه الذَّهبي، والألباني في «صحيح الجامع» (٣٨٨٧).

المستقيمُ إذا أرادَتْ نفسُه أن تدخُلَ في شَهوة يجدُ أنَّ قلبَه ينقبض ويلفَظُها، ولا يجد راحةً ولا طمأنينة، فهذَا واعظ جعله الله في قلب كلِّ مسلمٍ.

والشَّاهد مِن هذا الحديث أنَّ جنبَتَيْ طريق الاستقامةِ أبوابٌ تُخرج الإنسانَ عن طريق الاستقامة، وهذه الأبوابُ تَرجعُ في الجملة إلى أمرين: إمَّا شُبُهاتٌ، أو شهواتٌ؛ وخروجُ العبد عن الاستقامة إمَّا بشُبْهة أو بشَهْوةٍ.

قال ابنُ القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقَد نصَبَ الله- سبحانه- الجسرَ الَّذي يمُرُّ النَّاس منْ فوقِه إلى الجنَّة، ونصبَ بجانِبَيه كلاليبَ تَخطف النَّاسَ بأعمالهم، فهكَذا كَلاليبُ الباطل مِن تَشْبيهات الضَّلال، وشَهوات الغَيِّ تمنَع صاحبَها من الاستقامة على طريق الحقِّ وسلوكِه، والمعصومُ من عصَمَه الله»(١).

والعبد في هذا المقام يحتاج إلى نوعين من الهداية ليسلم له سيره، وهما: الهداية إلى الصِّراط المستقيم، والهداية في الصِّراط المستقيم.

---

(١) «الصواعق المرسلة» (٤/ ١٢٥٦).

قال ابن القيِّم: «فالهداية إِلَى الطَّرِيق شَيْء، وَالْهِدَايَة فِي نفس الطَّرِيق شَيْءٌ آخر، أَلا ترى أَن الرجل يعرف أَن طَرِيق الْبَلَد الْفُلَانِيّ هُوَ طَرِيق كَذَا وَكَذَا، وَلَكِن لَا يحسن أَن يسلكه، فَإِن سلوكه يحْتَاج إِلَى هِدَايَة خَاصَّة فِي نفس السُّلوك، كالسير فِي وَقت كَذَا دونَ وَقت كَذَا، وَأخذِ المَاء فِي مفازةِ كَذَا مِقْدَارَ كَذَا، وَالنُّزُولِ فِي مَوضِع كَذَا دون كَذَا، فَهَذِهِ هِدَايَةٌ فِي نفس السَّير قد يهملُها مَن هُوَ عَارِفٌ بِأَنَّ الطَّرِيقَ هِيَ هَذِه، فَيهْلكُ وَيَنْقَطِعُ عَن الْمَقْصُود»(١).



(١) «رسالة ابن القيِّم إلى أحد إخوانه» (ص ٩).

القاعدة العاشرة:

التشبُّه بالكفَّار من أعظَم الجنوح عن الاستقامة

والتَّشبُّه بهم راجعٌ إلى نوعين من الفَساد: إمَّا فساد العلم أو فساد العمل.

وتأمَّل هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾.

وفسَاد اليهودِ من جِهة العَمل، وفساد النَّصارى من جِهة العِلم، اليَهود علِمُوا ولم يَعْمَلوا، والنَّصارى عَمِلوا بلا عِلم.

فالفسادُ الَّذي يكون في هذا البابِ، إمَّا بمُشابهةٍ لليهُود بأن يكون عند الإنسان عِلمٌ لا يعمَلُ به، أو بمشابهةٍ للنَّصارى بأنْ يعمَل بلا عِلمٍ ولا بصيرةٍ.

وقد سمَّى شيخُ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ كتابَه «اقتضَاءُ الصِّراط المستقيم مخالفةَ أصحابِ الجحِيم».

وأشار فيه رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى بعض أمُور أهلِ الكتاب الَّتي ابتُلِيت بها هذه الأُمَّة، ليَجتَنِب المسلمُ الانحرافَ عن الصِّراط المستقيم إلى صراطِ المغضوبِ عليهم أو الضَّالين، وأورد قولَ الله

سبحانه: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ﴾ [البقرة:١٠٩].

قال: «فذمَّ اليهود على ما حسَدوا المؤمنين على الهدى والعلم، وقد يُبتَلى بعضُ المنتسِبين إلى العلم وغيرهم بنوعٍ من الحسَد لمن هداه الله بعلمٍ نافعٍ أو عملٍ صالحٍ، وهو خُلُقٌ مذمومٌ مطلقًا، وهو في هذا الموضع من أخلاقِ المغضوب عليهم»(١).

وأخذ يذكُر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أمثلةً عديدةً من الأمُور الَّتي هيَ من أعمال اليهودِ أو أعمال النَّصارى، وقد يتشبَّه بهم فيها بعضُ المسلمِين، قد قال النَّبيُّ ﷺ: «لَتَتْبَعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ شِبْرًا شِبْرًا وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ تَبِعْتُمُوهُمْ»(٢).

* * *

(١) «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ٨٣).

(٢) أخرجه البخاري (٧٣٢٠)، ومسلم (٢٦٦٩) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

خاتمة

أختِم بقاعدةٍ أخيرة أو كلمةٍ جميلةٍ متينةٍ لشيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يقول ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: «أعظمُ الكرامَةِ لزُومُ الاستقامَة»(١).

وقال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان»(٢): «وإنما غايةُ الكرامةِ لزومُ الاستقامة».

ولهذا يقول ابنُ القيِّم نقلًا عن بعضِ أهل العلم قال: «كُن صاحبَ الاستقامَةِ لا طالِبَ الكَرامة، فإنَّ نفسَك متحرِّكَةٌ في طلَبِ الكرامةِ، وربُّك يُطالبُكَ بالاستقامةِ»(٣).

بمعنى أنَّ العبدَ ينبغِي عليه أنْ يكونَ دومًا وأبدًا مجاهدًا لنفسِه في أن تَلزَم صراطَ الله المستقيم، وأن تُحافظَ على طاعتِه -تبارك وتعالى-، وأن يُجاهدَ نفسَه على ذلك لينال أعظم الفوز وأكبر الغنيمة، وهو قولُ ربِّنا عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ

---

(١) مدارج السَّالكين (٢/ ١٠٥).

(٢) (ص٣٤٩).

(٣) «مدارج السَّالكين» (٢/ ١٠٥).

وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى
ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ
وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [سورة
فصلت]، وبقوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا
خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ
فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [سورة الأحقاف].

أسألُ الله الكريمَ ربَّ العرشِ العظيمِ بأسمائِه الحُسنى وصفاتِه العليا أنْ يَكتُب لنا جميعًا الثَّباتَ والهدايةَ إلى صراطِه المستقيمِ، وأن يُعيذَنا من سَبيل المغضوب عليهم وسَبيل الضَّالين، وأن يُصلِح لنا شأنَنا كلَّه، وأن يُصلِح لنا دينَنا الَّذي هو عِصمَة أمرِنا، وأن يُصلِح لنا دنيَانا الَّتي فيها معاشُنا، وأن يُصلِح آخرتَنا الَّتي فيها مَعادُنا، وأن يجعلَ الحياةَ زيادةً لنا في كلِّ خيرٍ والموتَ راحةً لنا من كلِّ شرٍّ.

وآخر دعوانا أن الحمدُ لله ربِّ العالمين.

وصلَّى الله وسلَّم وبارك وأنعم على عبدِه ورسولِه نبيِّنا محمَّد، وآله وصحبِه أجمعين.

❁ ❁ ❁